الحكم على فرعونة

من تاريخ مصر القديم

تناولت من مكتبتي كتابا روسيا ضخما وضعه مؤرخ روسي شهير لتاريخ مصر القديم لأقتل الوقت بمطالعته فقرأت فيه فصولا لذيذة غريبة الحوادث والوقائع فأردت أن أشاطر قراء الاخاء بما طالعته فاخترت لهم هذا الفصل الذي عربته بما يأتي:

لدى وفاة ملك مصر ابن الشمس كان أهالي البلاد يرتدون أثواب الحداد مدة ٧٢ يوما ابتداء من يوم وفاته الى يوم دفنه أي سبعة أسابيع يتألف كل أسبوع من عشرة أيام. وفي خلال أيام الحداد كانت تنقطع الصلوات والخدمات الدينية في الهياكل وكذلك تقديم الذبائح وتتوقف جميع الحفلات والاعياد فلا يسمع الانسان أصوات الموسيقى في خلال الحداد

وكان الاهالي جميعهم بلا استثناء يتمنطقون بمناطق الحداد ويقطعون عن أكل اللحم وخبز القمح والعنب وشرب الخمر.

وكان الأهالي من مطلع الشمس حتى مغيبها يجتمعون زرافات أمام الهياكل المقفلة حيث يسجدون أمامها وينثرون الرماد على رؤوسهم. وعند ما يتقابل المعارف في الشوارع لا يحيون بعضهم بل يخاطب الصديق صديقه بقوله: — هل بلغك أن ابن الشمس مات ؟!

وكان أهل الميت وأقرباؤه يقضون مدة الحداد بالآلام والبكاء والعذاب لان جثمان الميت لا يودع في مرقده الاخير في المقبرة حتى يقول الشعب كلمته الاخيرة بشأن الميت ويصدر حكمه النهائي عليه.

وعد المؤرخون هذه العادة حكمة رائعة تدل على ذكاء المصريين الاقدمين وسمو مداركهم وايقاف ملوكهم عند حدهم وحملهم على الاعتصام بأهداب العدل والانصاف. ذلك أن فرعون كان مطلق الحكم ذا كلمة نافذة لا يستطيع أحد ان

شكوى عملا له او يحتج عليه أو يعترضه بل كان مطلق التصرف في البلاد اذا قال فعل واذا حكم نفذ حكمه

ولكن لدى وفاته كانت الكلمة الاخيرة تنتقل الى الشعب . وكان حكمه رهيباً جداً لان عليه يتوقف امر الدفن الذي كان له أهمية كبرى عند كل مصري الذي يبذل كل مجهوداته في حياته ليدفن لدى موته بالاكرام والاجلال

كان الشعب يتقاطر الى العاصمة من كل فج سحيق لاصدار حكمه النهائي على الملك واذا برهن أحد الحاضرين من الاهالي على ان الملك ظالمه أو تصرف معه تصرفاً غير منطبق على قوانين الانصاف فان الدفن اللائق يتوقف . ولا يودع جثمانه في الارض فيأخذه أهله ولايجوز لهم دفنه في حديقة المنزل بل يسدون جثته على حائط حيث تبقى على هذه الحال مدة طويلة عبرة وعظة لاولاده وأحفاده

ويجوز العدول عن هذا الحكم القاسي اذا قدم المظلوم وثيقة كتابية يصرح فيها ان أهل الميت استغفروه واسترضوه وكفروا عن ذنب فقيدهم . وفي مثل هذه الحالة يتم دفن الميت بالاحتفال اللائق

فاذا انقضت أيام الحداد نرى امامنا ضريحاً مودعة فيه مومياء الفقيد لأن المصريين كانوا يحنطون جثث الموتى وتوضع المومياء في ثلاثة صناديق وتوضع معها أصنام الآلهة وشعرُ الملك ورموزه وزينته وحلاه وكل ما كان يحبه في حياته

ثم يتقاطر الناس أفواجاً بالألوف والمئات يتكأكأون حول الضريح ويقف الى جانبه ٤٢ قاضياً من قضاة مصر المشهورين ويقف عن يمينهم أهل الميت وعن يسارهم الشعب ثم يصمت الجميع كأن على رؤوسهم الطير ثم ينشد الكهنة انشودة الدفن وبعد هذا يقف شقيق الميت فوق رأسه ويخاطب الجماهير بكلمة يقولها بلسان المتوفى واليك تعريبها :

«هكذا يقول الملك الراقد الآن أمامنا: اني أحببتك ياشعب مصر ! وكرست حياتي لخدمتك ولم أفكر بغير خيرك وسعادتك . اني شيدت المبانى كل واقمت الانصاب . واعتصمت بعرى العدالة والانصاف . ولم اخدع أحداً ولم أهن شخصاً ولم أكن بخيلا وعشت عيشة الاعتدال . ولم انقض عهد الزواج . واكرمت ابي وامي

وكنت خاضعاً لارادة الآلهة ولم انحرف عن الحق قيد شعرة .

بهذه الكلمات كان شقيق التوفي يحاول تبرئة شقيقه من جميع الذنوب ومن كل مايدعو الى انتقاده أو لومه . ثم بعد ان ينهي خطبته يلقي نظرة على وجوه السامعين ليرى تأثير كلامه فيهم ودل قبوله بالرضى والارتياح أو بالامتعاض والكدر

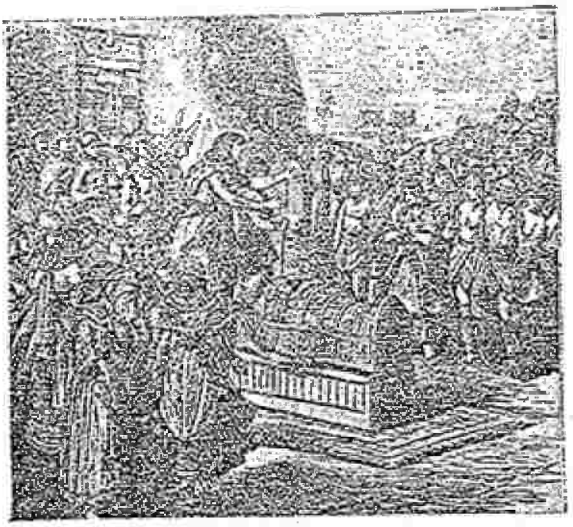

الحكم على فرعون في مصر القديمة

ثم يتقدم بعده رئيس القضاة ويقول بصوت جهوري رنان :

ياشعب ! مصر هذا ملكك الراقد أمامك يطلب منك ان تدفنه باحتفال مقرون بالاجلال والاكرام

ثم يستطرد الكلام ويقول : كل من يتهم الملك بالشر أو الخديعة فليتقدم ويذكر شكواه على رؤوس الاشهاد . كل من يستطيع القول بأنه تصرف تصرفاً منافياً للعدالة ولم يكفر عنه بالخير والتضحية فليتقدم ويعلن ذلك على مسمع الشعب . أمامكم الآن مجلس القضاء وهو مستعد لسماع كل شكوى والحكم بمقتضى العدل . ولكن فليعلم كل شاك شكاية كاذبة أن الذنب يقع على رأسه ويعرض نفسه لانتقام الآلهة

ثم يسود بعد هذا سكوت تام . يتولى في خلاله الجزع والفزع على قلوب أهل المتوفى . ويشحب وجه أرملته الحزينة التي تكون واقفة مع أولادها . والتي في خلال أيام الحداد كانت تبحث مع أقاربه عليها تجد شخصاً يشكو من ظلم الملك له فتسترضيه وتكفر عن ذلك الذنب ومع هذا فانها تخشى وجود أحد يشكو المتوفى أو ينسب اليه تهمة ما وبناء على ذلك تنتظر بقلق وجزع ما يحدث بعد كلام رئيس القضاة وبعد خمس دقائق يكرر رئيس القضاة نداءه وبعد خمس دقائق أخرى يعيده للمرة الثالثة

فاذا لم يتقدم أحد للشكوى فان القضاة يتداولون بالأمر ثم يتقدم الرئيس ويهتف قائلا:

— أننا أقنا الحكم عليك يا فرعون مصر ! ووجدناك بريئاً طاهراً . وأنا رئيس القضاة أعلن أننا لم نجد فيك عيباً أو نقصاً وانك بريء من كل ذنب وسنحتفل بدفنك الاحتفال اللائق بك . فارقد بسلام وسكينة . انك طاهر أمام الآلهة وأمام شعبك هذا

واذ ذاك تتصاعد آيات السرور والارتياح وتطفح الوجوه بالبشر والانشراح ويقدمون الذبائح ويحمل تابوت الفقيد الى المكان المعد لدفنه في جوف الهرم ويكون الملك في حياته أعد لنفسه ضريحاً خاصاً

* * *

ولا يتأتى لكل فرعون الدفن بالاحترام أو صدور قرار الحكم به . فقد حدث مراراً أنه بعد أول عبارة يلفظها شقيق المتوفى أو أحد أفراد أسرته تتصاعد أصوات الاحتجاج من كل جانب وترتفع الضوضاء من الذين لم يكونوا راضين عنه في حياته

وجرت حوادث في تاريخ مصر : أنه اذا لم يصرح الشعب بدفن جثة الملك يحدق الحاضرون بضريحه ويمحون الكتابة والنقوش المرسومة عليه ثم يزيلون الكتابات المكتوبة عنه ويأسمه عن الآثار والمباني في جميع انحاء المملكة حتى لا يبقى له ذكر أو أثر يدل عليه ولم يقفوا عند هذا الحد بل كانوا يمحون اسمه من سفر الاحياء في مصر

وعند ماذكر المؤرخ اليوناني الشهير ديودور في تاريخه خبر الحكم على فرعون قال في ختام كتابته ما يأتي : « وكان الفراعنة يجتنبون في حياتهم الاعمال الرديئة والتصرفات المنافية للعدالة خيفة أن لا يدفنهم الشعب بالاكرام اللائق بهم »

ويستطيع الانسان اليوم أن يرى آثار انتقام الشعب المصري على الآثار المصرية المنقولة الى متاحف أوربا . فذلك مثلاً تمثال الالاهة بشت فان اسم ولقب فرعون محوّ أن عنه وقرر المؤرخون أن فرعون المسمى بأمنحوتيب مسح اسمه عن التماثيل التي اقامها في حياته

جرح نابليون

قليلون الذين يعرفون أن نابليون بونابارت الفاتح العظيم جرح في جميع حروبه وغاراته في الغرب والشرق مرة واحدة فقط ومعلوم أنه كان يشترك في جميع المعارك ويدفع نفسه الى مواقع الخطر تشجيعاً للجنود وادارة حركات القتال وقد جرح مرة واحدة وذلك في محاربته للنمسويين بجوار «ريجينسبورج» في ٢٣ ابريل عام ١٨٠٩

وفي خلال هذه المعركة العنيفة كان نابليون يراقب سير القتال عن رأس تل واقع بالقرب من ميدان القتال وينظر بمنظاره حركات الجيوش والتحامهم في تلك المعركة الهائلة . فوقع منظاره من يده فجأة واضطرب وانتفض ولكنه ما عتم حتى عاد الى حالته الاولى ووجه نظره شطر البافاريين أقرب الجنود اليه وكانوا محالفين في هذا الوقت للفرنسيين . ولذا كان من الصعب أن يتصور المرء أن الرصاصة وجهت اليه من صفوفهم عمداً . ثم شعر نابليون بألم شديد في رجله فنزل عن جواده وأجلسه الدكتور على كومة من الحقائب والاردية وشق طبيبه الخاص حذاءه فوجد جوربه الحريري ملوثاً بالدم وقد وقعت الرصاصة في المفصل الواقع فوق القدم وسبب له الجرح آلاما مبرحة لاتطاق

فألح عليه الطبيب بالاضطجاع حالا في أحدى النقالات ليتمكن من غسل